

## أصول الشعر العربي

الدكتور : يوسف غيووة

جامعة - قسنطينة -

### الشعر قبل منتصف القرن الخامس الميلادي

على الرغم من الجهود العظيمة التي بذلت من أجل الوصول إلى حقيقة البدايات الأولى للشعر العربي ، و التعرف على الخطوات التي بدأ بها مسيرته على طريق النمو والتطور ، و التي أوصلته إلى هذا النضج الذي ظهر به فجأة في نهاية القرن الخامس الميلادي . على الرغم من ذلك ، بقيت الدراسة الأدبية عاجزة على إقتحام ذلك الحاجز القوي ، الذي يشكله منتصف القرن الخامس الميلادي . إذ أن ما وراء هذا التأريخ ما يزال يشكل لغزا مستعصيا على أقوى الباحثين إرادة ، و أكثرهم صبرا ، بحيث لم يستطع باحث - أيا كان زمنه ، أو المنهج الذي اتبعه - أن يقدم صورة مقنعة عما كان عليه الشعر العربي قبل منتصف القرن الخامس الميلادي . فأراء القدمى التي يمكن الإطمئنان إليها لم تتجاوز بالشعر هذا التاريخ ، فهو الزمن الذي شهد ظهور الشعر العربي عند الجاحظ . (1) أما الأصمعي فإنه جعل بلوغ الشعر طور القصيدة على يد المهلهل بن ربيعة ، أي في نهاية القرن الخامس ، و بداية السادس ، من دون أن يحدد له صورة قبل هذا الشاعر . (2) بينما فصل بن سلام بين نظم البيت و المقطوعة ، و تقصيد القصائد الذي حدد إنطلاقة هو الآخر بزمن المهلهل . غير أن صاحب طبقات فحول الشعراء لم يتوسع في الحديث عن شعر الأزمنة التي سبقت مهلهلا ، على الرغم من موقفين أبداهما من أشعار تلك الأزمنة ، التي اصطُح على تسميتها بالجاهلية الأولى .

## الأول :

أنكر من خلاله الأشعار التي نسبها بعض القدماء إلى شخصيات أسطورية من أصحاب هود عليه السلام - ولقمان بن عاد ، أو إلى الأنبياء الأوائل من أمثال آدم و نوح عليهما السلام أو إلى إبليس ، و الجن .

## الثاني :

و قوعه هو الآخر في مثل ذلك الخطأ إذ نسب شعرا إلى شخصيات يفترض أنها عاشت بحوالي ألف سنة قبل الإسلام مثل الشعر الذي نسبته إلي أعصر بن سعد بن قيس عيلان ، أو ذاك الذي نسبته إلى العنبر بن عمرو بن تميم . (3) و آراء هؤلاء العلماء الثلاثة ، تشكل قاعدة الأحكام الصادرة في موضوع نشأة الشعر العربي ، و من ثم كانت أكثر الآراء إحترما لدى الدارسين المحدثين ؛ لأن بعض ما نقله كثير من العلماء الرواة من معاصريهم ، أو تلامذتهم ، بعيد عن المنطق ، و عما يقبله العقل من ثم قبول بنفور الدراسات الأدبية الحديثة ، و رفض أصحابها .

و من تلك الأشعار التي نقلها أو لثك القدماء ، نذكر ما نجده عند ابن إسحاق في السيرة ، و السجستاني في كتاب المعمرين ، و أبي زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب (4) و هي أشعار ينسبها هؤلاء العلماء إلى الجن تارة ، و إلى آدم ، و نوح - عليهما السلام - أخرى ، و إلى شخوص من العرب البائدة ثالثة . و أقل ما يقال عن تلك الأشعار إنها من عبث الرواة و وضع الأعراب . إما بغرض إثارة الإعجاب الناتج عنه مردود مادي أو معنوي . و إما بغرض إثارة العجب و السيطرة على عقول الناس . إذن تبقى الأزمنة التي تعاقبت قبل منتصف القرن الخامس الميلادي مجهولة ، من حيث هذا الموضوع ، إلى يومنا هذا . و أمام هذا الفراغ يجد الباحث نفسه يسير في موكب إفتراضات فرضه ضباب التاريخ الذي أخفى عنا حقائق الشعر و الأدب في تلك الحقبة . و الحق نقول إنها إفتراضات لا ترقى إلى اليقين . و لا يجد فيها الباحث دليلا قاطعا على ما يذهب إليه في معالجة القضايا الشعرية ، التي أثارها القدماء و لا يملك - و الحال هذه - إلا أن يعلن عجزه عن تقديم حقائق ثابتة في هذا المجال و هو ما انتهى إليه أحد الباحثين المحدثين بعد دراسة علمية جادة خص بها هذا الموضوع فالدكتور سيد حنفي يقر بأن الجهود المبذولة في هذا المجال " لم تتعد مرحلة الفروض التي لم يثبت منها فرض بصورة علمية حتى الآن". (5)

و قد يكون الدكتور حنفي متأثرا في إعترافه السابق بما انتهى إليه قبله أحد الباحثين الكبار في عصرنا الدكتور شوقي ضيف ، الذي قرر في هذا الشأن الحقيقة التالية " لا ريب في أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى في صورته الجاهلية غامضة فليس ، بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى ، إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليد ها الفنية المعقدة في الوزن و القافية و في المعاني و الموضوعات و الأساليب و الصياغة المحكمة و هي تقاليد تلقى ستارا صفيقا بيننا و بين طفولة هذا الشعرو نشأته الأولى فلا نكاد نعرف من ذلك شيئا . (6) و يذهب باحث معاصر آخر في الإتجاه نفسه مع شيء من التحديد في الموقف و مسحة من اليأس . هذا الباحث هو الدكتور علي العتوم الذي يصرح في هذا المعنى قائلا: فإنه يقر في نفسي أن معرفة الأولى للشعر الجاهلي تكاد تكون ضربا من المستحيل ... و لعلي أستأنس فيما ذهبت بقول عمرو بن شبة ، رحمة الله إن للشعر و الشعراء أولا لا يوقف عليه و لا يمكن معرفته . (7)

فالدكتور العتوم - كما يصرح به - يعتمد على ما نقله السيوطي عن عمرو بن شبة ، لكنه مع ذلك يعلن عن حقيقة جابهت غيره من الباحثين ، وء ينكرها منهم إلا من سلك دروب التعصب و تحكيم الهرى ، لأن ما وراء التاريخ الذي حددناه من قبل للشعر الذي يمكن الإطمئنان إليه - مع شيء من التوسع - يبقى مستعصيا على الباحثين ، و يبقى شعر تلك الأزمنة المظلمة أمرا من علم الغيب ؛ وذلك إلى أن يأتي الله بالفرج ، و يعثر الدارسون على نصوص شعرية تمثل بحق تلك المرحلة - أي ما قبل منتصف القرن الخامس الميلادي - إذن يبقى هذا التاريخ يقف أمامنا كجدار يمنعنا من معرفة شعر مرحلة المقطوعات و الأبيات . و إذا كان قانون تطور اللغة من جهة ، و تطور الفنون و الصناعات من جهة أخرى ، يدفعنا إلى رفض تلك الأشعار المنسوبة إلى عالم الجن و الأسطورة و الخرافة ، و التي هي في حقيقتها من صنع أبناء القرنين الأول و الثاني للهجرة . فإن القانون نفسه يجعلنا نعتقد إعتقادا راسخا في أن ما بين أيدينا من أشعار المهلهل بن ربيعة و زهير بن حناب و أبي دؤاد الأيادي و غيرهم من الرواد إنما وصل إلى الصورة التي هو عليها بعد مروره بمراحل التعثر و النمو ثم الإكتمال و النضج .

( و هو ما ذهب إليه جل الباحثين ) لكن ، و إنطلاقا من إعتقادنا السابق أولا ، و من واقع الشعر العربي الذي بين أيدينا ثانيا ، نستطيع أن نزعّم أن معرفة بداية الشعر في أبسط صوره و في صياغته الأولى يبقى ضربا من المغامرة ، و نوعا من الرياضة العلمية ، لا يمكن أن تؤدي - في الظروف الحالية - إلى نتيجة علمية تضيف إلى الدراسة الأدبية شيئا ذا بال .

و هو أمر يترك المجال مفتوحا للتساؤلات حول أصول الشعر العربي و كيفية نشأته و أشكاله الأولى ، و العناصر التي تكون منها في بداياته ، و تبقى هذه القضايا تلح على الباحثين ، و تدفعهم إلى البحث في كل ما يمكن أن يكون ذا صلة بالشعر ، علهم يعثرون على ذلك الخيط المفقود في نسيج هذا الفن .

### خطوات الشعر الأولى في الدراسة الأدبية

إن هذا الواقع بصورة الحالكة ، و بعجز الأدوات و المستعملين لها في مجاله جعل هؤلاء يلجأون إلى دراسة العلاقة التي يحتمل أن توجد بين الشعر و أشكال أدبية أخرى ، كالأمثال و السجع و الرجز و الأغاني التي كانت تصحب الأعمال البدائية . و قد أدى بهم ذلك إلى الاختلاف في الطرق و التباين في الآراء . فمنهم من رأى في الأصوات و الترنييمات التي كانت تصاحب أعمال الناس ، و تساعد أصحابها على أداء مهامهم كالصيد و السقي و الغزو ، المصدر الأولى للشعر العربي . و منهم من رأى في الترنييمات و الجمل المسجوعة ذات الرنين الموسيقي ، التي كان يتلفظ بها الكهان في طقوسهم بغرض التأثير على سامعيهم ، مصدر إنطلاق البدايات الأولى للشعر . و منهم فريق ثالث وجد في الحداء أول وزن من أوزان الشعر اكتشف منذ زمن مضر . جّد فريق كبير من العرب - بعد حادث سقوطه من جمله . و شذ عن هؤلاء جميعا الدكتور يوسف خليف الذي جعل الرجز أصل الشعر العربي دون البحث في مصادره البدائية .

و حتى يتسنى لنا أن نقف على ثمرات هذه الجهود و نتائج الدراسات التي قامت عليها ، نحاول أن نستعرض مجموعة من الآراء التي أبدأها أصحابها حول هذه القضية ، علنا نجد فيها مؤشرات أو دلائل من شأنها أن تساعدنا على الوصول إلى حقيقة هذا الأمر. و قد استأنس الدارسون ببعض الآراء التي وردت في كتابات القدامى ، مثل رأي ابن رشيق الذي عبر عنه بقوله : " كان الكلام كله منشورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، و طيب أعراقها ، و ذكر أيامها الصالحة ، و أوطانها النازحة ، و فرسانها الامجاد ، و سمحاتها الأجواد ، لتَهْز أنفُسها إلى الكرم و تدل أبناءها على حسن الشيم فتوهما أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا ، لإنهم شعروا به ، أي فطنوا " . (8)

و لكن القدامى لم يدلونا على الصورة البدائية التي ظهر عليها ذلك الوزن أو الأشكال التي توهما فيها تلك الأعاريض . هل تم لهم ذلك دفعة واحدة فأبدعوا هذه الأوزان كما هي في أشعار العرب المكتملة ، أو توهمها ناقصة ، مثل الطفل يتعثر في خطواته الأولى ، فيسقط ، ثم يقوم ليسقط ثانية و هكذا حتى يستقيم في مشيته ؟ فإذا كان هذا هو ما حدث فما هي تلك الخطوات الأولى أي الأشكال البدائية التي مر بها الشعر العربي ثم الصيغ التي تلت ذلك حتى وصل إلى ما هو عليه في أشعار شعراء القرن السادس الميلادي ؟ علما بأن مسيرته تلك قد استقرت لدى الدارسين المحدثين كواقع لا مراء فيه . و هذا أحدهم الدكتور نجيب البهيتي يصرح في شأن تلك الخطوات التي يجب أن يكون الشعر قد خطاها قبل أن يصل إلى ما هو في أشعار الجاهلين ، فيقول : ( ثم إن النمو الطبيعي للقصيد العربية ، و أوزانها و موضوعاتها ، و اللغة و نحوها و أساليبها ، و إيجازها ، يستدعي أن تكون مرت قبل زمن امرئ القيس بأطوار كثيرة و تعثرت تعثرات جمة حتى اكتمل لها هذا الشكل الذي نجدها عليه في شعر امرئ القيس و من سبقه أو جاء بعده ) . (9)

فمراحل التطور التي مر بها الشعر قبل أن تكتمل صورته حقيقة لدى أغلب الباحثين ، أو قل عند جميعهم ، فهي تحقق إجماعا في عالم الدراسة الأدبية قلما حققته مسألة من هذا القبيل.

## الشعر بين الأصول الرجزية والأصول السجعية

ينشب الخلاف بين الباحثين الذين ضمهم الإجماع سالف الذكر ، حول الصيغ التي سبقت صنعة الشعر الجاهلي ، والأصول التي انتقل منها ، ويقودهم خلافتهم إلى التجمع في فريقين : الأول يقول إن الشعر تطور من الرجز . والثاني يرى أنه انتقل إلى ذلك من السجع ، ثم يختلفون في اتجاهات ، تفرق بينهم جزئيات محدودة . وأكثر الباحثين العرب من المحدثين ينتصرون لفكرة تطور الشعر من الرجز و هم في هذا يقرون بالفصل بينه وبين القصيد . هذا الفصل الذي وجدناه لدى بعض القدمى ، نذكر من بينهم أبا عثمان الجاحظ الذي بحث هذه القضية حيث أفرد لمسألة الفصل بين الرجز والقريض مساحة ملحوظة من كتابه (البيان والتبيين) كما نقل كثيرا من نصوص الرجز في كتابه القيم الآخر (الحيوان) وأهم ما يمكن إستخلاصه من معالجته موضوع الرجز هو أن هذا الوزن يشكل فنا مستقلا بذاته وهو من ثم يختلف عن القريض فلكل منهما مقوماته وضوابطه الخاصة . نستطيع زعم هذا ؛ لأن أبا عثمان يذكر جماعة من الشعراء الفحول مشهورين بالرياسة والريادة في ميدان الشعر ، منهم جاهليون ، ومنهم إسلاميون ، وكلهم برع في القريض وبلغ فيه الدرجات العليا ، لكن فن الرجز تعذر عليهم إبداعه ، واستعصت عليهم إجادته ، حيث لم يعرف عنهم أنهم أحسنوا منه شيئا ، بينما وجد من زملائهم من كان يجمع بين الفنين وقد بين الجاحظ ذلك في نص صريح حيث قال : "و من الشعراء من يحكم القريض ولا يحسن من الرجز شيئا ، ففي الجاهلية منهم زهير والنابغة والأعشى ، وأما من يجمعهما فامرؤ القيس وله شيء من الرجز ، وطرفة وله مثل ذلك ، وليبد وقد أكثر . ومن الإسلاميين من لا يقدر على الرجز وهو في ذلك يجيد القريض . كالفرزدق وجابر ، ومن يجمعهما فأبو النجم ، وحميد الأرقط ، والعماني ، وبشار بن برد" . (10) فقول أبي عثمان "لا يقدر على الرجز" يؤكد أن هذا العالم الكبير كان يؤمن بانفصال الرجز عن القريض انفصالا تاما ، فمن يقدر على القريض لا يقدر بالضرورة على الرجز ، إذ أن الأمرين مختلفان كلية . لكن هذه الحقيقة لم يتم الإجماع حولها بين الباحثين المعاصرين ، حيث تناولها كل حسب فهمه ، ومن الوجهة التي يراها مناسبة لما يذهب إليه من آراء وأحكام .

فالدكتور محمد الصغير بناني الذي عقد فصلا في بحثه الذي خص به النظريات الأدبية و اللسانية في البيان و التبيين ، لقضية التسلسل في القول ، استعرض النصوص الواردة في الكتاب المذكور آنفا و التي تتناول موضوع الرجز ، ثم اختار نصا منها أورده الجاحظ بهذه الصيغة " قال الكميت :

كأن الغطامط من عليها أراجيز أسلم تهجو غفارا

فجعل الأراجيز ، التي شبهها في لفظها و التفافها بصوت غليان القدر لأسلم دون غفار". (11) و قد عقب الدكتور بناني على هذا النص بقوله : "ة الرجز حسب هذا التعليق هو صوت (لغط) لكنه ملتحف ، أي ممتد مع الزمن . و إذارجعنا إلى تشبيهه بغليان القدر أمكننا القول إن هذا الإمتداد قد يطول كثيرا ، وهذه الميزة في الرجز نجد ها في الأوصاف الأخرى التي وصف بها الجاحظ الرجز ، فهذا النوع يقال عادة عند السير مع الإبل أو السقي من الآبار (حين يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير ) و يفهم من كلام الجاحظ أن هذا الرجز كان يتعاطاه حتى الصبيان ، مما يدل على سهولته . و سهولة الرجز تكمن في طبيعة قلبه الشعري ، فهو لا يشترط في نظمه تكلفا كبيرا .

وإذا كان الرجز المقصود هنا هو من النوع الذي قدم لنا الجاحظ منه نماذج كثيرة وكلها من ذوات المصراع الواحد أدركنا نوعا ما سر تقسيمه هذا الذي جعل الرجز في درجة أعلى من السجع و أدنى من القصيدة . (12) فهذا التعقيب من الدكتور بناني الذي أول فيه ملاحظة الجاحظ انتهى به إلى نتيجة نسبها إلى هذا الأخير . و هو منها براء . جعل فيها الرجز في درجة وسطى بين السجعو القصيد و هو ما لم يرد ذكره . تصرّحا أو تعريضا . في أي نص من نصوص أبي عثمان الواردة في هذا الموضوع . و هذا فيه إجحاف في حق الجاحظ و المرجز معا . ضف إلى ذلك أن تشبيه الكميت أصوات غليان القدر . الأراجيز لايعني أن هذا الشاعر كان يعتقد في بساطة هذا الفن لأن تلك الأصوات فيها انتظام زاستمرار و نغم ، و هي صفات موجودة في الرجز و القريض معا .

و تجدر الإشارة إلى أن الدكتور بناني لم يكن يهتم بأحكام أبي عثمان الو  
هذه القضية ، فقد شاركه باحثون آخرون استوقفتهم تلك الأحكام . منهم الدكتور ج  
لعبيدي . الذي خص فن الرجز بدراسة أكاديمية . فقد استوقفه تصنيف الجاحظ للشعر  
حيث قدرتهم على الجمع بين الرجز و القريض أو الإنفراد بأحدهما فعقب عليه بقوله  
(الجاحظ) بها يقسم الشعراء إلى راجز و مقصد و هذا هو الرأي الصحيح الموافق  
و المطابق للواقع " . (13) و<sup>٦</sup> يعني هذا أن الباحثين السابقين مختلفان في تق  
للرجز أو تحديد منزلة بالنسبة للقريض . فالدكتور جمال لعبيدي يؤمن هو الآخر ببسا  
و من ثم وضعه في مكانة الممهد للقريض ، أي جعله صورة مبسطة له . فبعد  
الموضوعات التي شكلت مجالا لرجز العربي و التي تمثلت في حاجته الضرورية  
المطالب الأساسية التي تواجه الإنسان البدائي من أكل و شرب . بعد ذكره لهذه  
بيدي ملاحظة لها أهميتها حيث يجعل الرجز في موضوعات الصيد و الحدا و الغز  
مبسطة لما سيصبح عليه الشعر في موضوعات الطرديات ، و وصف الناقة و الص  
و الحماسة . وهي العناصر نفسها التي نجد ها في قول الدكتور شوقي ضيف مت  
بساطة الرجز و إنتشاره في البيئات العربية القديمة : "و بدون ريب إنما كثرت  
و التعديل في الرجز لأنه كان وزنا شعبيا و كان كثيرا الدوران في حدائهم و في كل م  
بهم من حركة و عمل كحفر الآبار و المتع منها و مبارزة الأقار و استصراخ العشائ  
و لا نعتقد أننا نجافي الحقيقة عندما نزع أن الدكتور لعبيدي لم يكن  
قولة الدكتور شوقي ضيف السابقة ، عندما قرر تلك الحقيقة ، أو عندما كا  
العلاقة بين الرجز و القريض بقوله : " و فيما سبق حاولت تلمس ما يصاحب تلك  
الضرورة من شعر ، فوجدت أن معظمه - إن لم أقل كله - من الرجز . و إذ توص  
هذه النتيجة فلنا أن نقول : إن الرجز أول أنواع الشعر نشأة و أسبقها إلى الوجود  
كما يمكننا أن نقول : إن الرجز أبسط صورة للشعر من حيث الشكل و المعنى

و تجدر الإشارة إلى أن الدكتور بناني لم يكن يهتم بأحكام أبي عثمان الواردة في هذه القضية ، فقد شاركه باحثون آخرون استوقفته تلك الأحكام . منهم الدكتور جمال نجم لعبيدي - الذي خص فن الرجز بدراسة أكاديمية - فقد استوقفه تصنيف الجاحظ للشعراء من حيث قدرتهم على الجمع بين الرجز والقريض أو الإنفراد بأحدهما فعقب عليه بقوله : " فهو (الجاحظ) بها يقسم الشعراء إلى راجز و مقصد و هذا هو الرأي الصحيح الموافق للحال و المطابق للواقع " . (13) و لا يعني هذا أن الباحثين السابقين مختلفان في تقييمهما للرجز أو تحديد منزلة بالنسبة للقريض . فالدكتور جمال لعبيدي يؤمن هو الآخر ببساطة الرجز و من ثم وضعه في مكانة الممهّد للقريض ، أي جعله صورة مبسطة له . فبعدما حدد الموضوعات التي شكلت مجالا لرجز العربي و التي تمثلت في حاجته الضرورية التي هي المطالب الأساسية التي تواجه الإنسان البدائي من أكل و شرب . بعد ذكره لهذه المجالات يبيدي ملاحظة لها أهميتها حيث يجعل الرجز في موضوعات الصيد و الحياء و الغزو صورة مبسطة لما سيصبح عليه الشعر في موضوعات الطرديات ، و وصف الناقة و الصحراء ، و الحماسة . وهي العناصر نفسها التي نجد ها في قول الدكتور شوقي ضيف متحدثا عن بساطة الرجز و إنتشاره في البيئات العربية القديمة : " و بدون ريب إنما كثرت التجزئة

و التعديل في الرجز لأنه كان وزنا سَعْبِيَا و كان كثير الكوارث في حركاتهم و في كل ما يمكن بهم من حركة و عمل كحفر الآبار و المتع منها و مبارزة الأقران و استصراخ العشائر " . (14) و لا نعتقد أننا نجاني الحقيقة عندما نزعّم أن الدكتور لعبيدي لم يكن يجهل قولة الدكتور شوقي ضيف السابقة ، عندما قرر تلك الحقيقة ، أو عندما كان يحدد العلاقة بين الرجز و القريض بقوله : " و فيما سبق حاولت تلمّس ما يصاحب تلك الأمور الضرورية من شعر ، فوجدت أن معظمه - إن لم أقل كله - من الرجز . و إذ توصلنا إلى هذه النتيجة فلنا أن نقول : إن الرجز أول أنواع الشعر نشأة و أسبقها إلى الوجود ظهورا كما يمكننا أن نقول : إن الرجز أبسط صورة للشعر من حيث الشكل و المعنى " . (15)

و نستطيع أن نوجز أهم ما يميز العلاقة بين القصيد و الرجز في رأي هذا الباحث فيما يلي :

أ - إن الرجز فن أبسط من القريض من حيث الوزن و القافية و الغرض و المعنى .  
 فموضوعات المتح و الحداء و الحرب ببساطتها و إنتشارها في المجتمع العربي منذ  
 أطواره الأولى ، موضوعات ملائمة لهذه الصيغ الشعرية البسيطة التي يتسم بها الرجز .

ب - كانت متطلبات حياة العربي البدائية ( حفر الآبار استخراج المياه ، الصيد ،  
 الغزو ، التنقل عبر الصحراء بالإبل ) تحمل في طياتها دواعي ظهور الرجز .

ج - تكرار تفعيلة (مستفعلن) في الرجز تؤيد القول بأن هذا الوزن كان أول الشعر نشأة .

د - إذا ما سائرنا منطق التطور فإن من الطبيعي أن يكون الرجز قد انتقل من السجع . (16)

من هنا يكون الدكتور لعبيدي قد رسم هذا المسار الذي سلكه هذا الفن ، و هو في  
 واقع الأمر ، لا يكاد يختلف عن الدكتور بناني ، و غيره من الباحثين الذين تناولوا هذه  
 القضية في أبحاثهم ، و توصلوا إلى أن الرجز تطور من السجع ثم انتقل إلى فن "الرض"  
 لكن هل كان هؤلاء الذين اتخذوا لأنفسهم هذه الوجهة في بحثهم عن أصول الشعر العربي ،  
 سابقين إلى هذه الفكرة أم أنهم حذوا حذو غيرهم و بنوا أحكامهم على نتائج هذا الغير؟  
 إن الموضوعية تقتضي أن نشير إلى أن المستشرق العلامة "كارل بروكلمان" هو الذي رسم  
 هذا المسار الذي سلكه جماعة من الباحثين العرب المعاصرين ، فقد انتهى بعد بحث الأمر  
 من الناحية الإجتماعية - مستعينا بآراء عالمين في الإجتماع هما : بوخر و برويس - إلى  
 إصدار حكم صريح في مسألة الأصل الأول للشعر العربي ، حيث صرح قائلا : "ينبغي أن يكون  
 أقدم القوالب الفنية العربية هو السجع ، أي النشر المقفى المجرد من الوزن ... و السجع هو  
 القالب الذي كان يصوغ العرافون و الكهنة فيه كلامهم و أقوالهم ، كما جاء في القرآن ...  
 و ترقى السجع إلى بحر الرجز ، المتألف من تكرار سببين و وتد ليسهل على السمع ،  
 و يبلغ أثره في النفس . و بعض العلماء ينكرون عد الرجز من الشعر ، و في الواقع يبدو أن  
 الرجز في الجاهلية كان يلبي حاجة الإرتجال فحسب ، و لم يستخدمه بعض الشعراء في  
 منافسة الأوزان العروضية الكاملة إلا في زمن الأمويين . ومن الرجز نشأ بناء أبحر العروض  
 على مصراعين و قافية في الثاني . " (18)

فيبروكلمان في مذهبه هذا متأثر هو الآخر بآراء المستشرقين الذين عاصروه أو سبقوه بأزمة قصيرة ، إذ نجد فكرته عند أحدهم كما يحدثنا بذلك الدكتور محمد عوني عبد الرؤوف الذي يصرح في هذا الشأن قائلا : "يرى هاريمان أن أقدم ما وصلنا من الشعر العربي عبارة عن أبيات قصيرة مكونة من شطرتين أو ثلاث مقفاة ، و أن الغالب أنها متطورة من جمل نثرية قصيرة مسجوعة تعبر عن فكرة أو رأي"

"ثم يقدم هذا الباحث نموذجا عن تلك الأراجيز البسيطة التي أشار إليها في قوله السابق حارصا على تنبيهها إلى اختلافها عن وزن الرجز المعروف من حيث تفعيلتها و صياغتها ، فيواصل قوله : "وقد رويت بعض الأراجيز التي تبتعد إلى حد ما عن وزن الرجز التقليدي ، و هي تجمع بين أسلوب السجع و الرجز و كأنها الخطوة التي تطور إليها السجع ، مثل :

لمن ملك الذمار

لحمير الأخيار

لمن ملك الذمار

للحبشة الأشرار

لفارس الأحرار

لمن ملك الذمار

لقريش التجار" (19)

و على الرغم من أن الدكتور محمد عوني عبد الرؤوف لم يحدد فترة هذا الرجز إلا أن الصيغة التي ورد بها و نعتة الأحباش بالأشرار و حمير بالأخيار و فارس بالأحرار و قريش بالتجار يعكس واقعا تاريخيا يوافق ما عرفه العرب في القرن السادس الميلادي حيث غزا الأحباش مكة . ثم نشوب النزاع بينهم و بين الفرس من أجل السيطرة على اليمن و الذي انتهى لصالح هؤلاء حيث نصبوا ملكا عربيا على ذلك البلد . (20) إن هذا الواقع يرجح أن تكون هذه الأرجوزة البدائية قد قيلت بعد حدوث تلك الأحداث . على الرغم مما ذهب إليه الدكتور البهبهتي الذي يحدثنا عن أبهة الأول الذي عاصر حربه إحتلال الأحباش لليمن أول مرة سنة 340 م (21) و يجعل ذلك معاصرا لأحداث عربية أخرى هي في حقيقة أمرها حدثت في أواخر القرن الخامس . (22)

و أيا كان التأريخ المحتمل لهذه الأرجوزة فإننا لا نستطيع أن نجعلها تمثل طفولة الرجز ، التي هي الحلقة بين السجع والرجز كما زعم الدكتور محمد عوني عبد الرؤوف . وبخاصة إذا أخذنا في الحسبان موقف الراجز من الفرس ، والذي لا نشك في أنه جاء نتيجة ما أشرنا إليه من قبل ، أي موقف الفرس الذين طردوا الأحباش من اليمن ، و وضعوا على عرشها عربيا هو يوسف بن ذي يزن ، الذي قدمت عليه وفود العرب للتهنئة و كان منها وفد قرش برياسة عبد المطلب بن هاشم . (23) و هي فترة كان فيها الشعر الجاهلي قد اكتمل في أكثر صورة نضجا . أي فترة النصف الثاني من القرن السادس الميلادي .

و تتسع دائرة الباحثين المنتصرين لفكرة تطور الشعر من الرجز ، و تطور هذا الأخير من السجع ، و يتفق أصحابها في أشياء و يختلفون في أخرى ، حتى لو كانوا يصدرون جميعا عن المصدر نفسه ، الذي أشرنا إليه من قبل و نعني به فكرة المستشرق كارل بروكلمان . فالدكتور محمد الحسيني المرسي يتفق مع الدكتور لعبيدي وغيره من أصحاب هذا الاتجاه في أن الشعر بدأ رجزا مسائرا لبعض الحركات الإيقاعية التي أفرزتها الأعمال البدائية ، بل هو يلاحظ إجماع الباحثين حول هذه الفكرة فيقول : " و قد اتفق الباحثون على أن الشعر العربي بدأ مسائرا لحركة العمل الجماعي و الفردي مشجعا على إنجازه خاصة عند رحلاتهم فوق الإبل " . (24) و يأتي هذا الباحث إلا أن يشارك زملاءه الباحثين الجهد ، و البحث في بدايات هذا الشعر العربي ، فيصرح قائلا : " ومهما يكن فمما لا شك فيه أن الشعر حتى وصل إلى الحالة التي وصل إليها ، قد مر بضروب كثيرة ، فقد بدأ حذاء للإبل و سلوى النفس في شق المفازات و قطع الموامي المنبئة ، و تطور إلى رجز متحد الوزن تجري حركاته و سكناته مع وقع أقدم الإبل " . (25) فإذا كانت الحركات الإيقاعية المنبعثة من أعمال الإنسان العربي في تلك الأزمنة أو من حركات الإبل المصاحبة له في أسفاره ، هي مصدر تلك التي الأصوات كان يطلقها مرفها عن نفسه أو مشجعا لمن معه . فمتى ظهرت هذه الأصوات ، و من كان صاحب ذلك يجيبنا الدكتور محمود الحسيني المرسي نفسه فيقول : " و هذا الرجز قديم عند العرب ، يزعم العرب أن أول من قاله مضر بن نزار إذ سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه و هو يقول : وايداه ... وايداه . و كان من أحسن خلق الله أصواتا ، فأصغت إليه الإبل ، و جدت في السير فجعلته العرب مثالا لقوله : هايداه ... هايداه . يحدون بها الإبل ثم أطال العرب بعد ذلك في أراجيزهم و ضمو تلك الأوزان بعضها إلى بعض ...

ويث فيها عواطفه و ذكر فيها آماله وأشجانه و ذكّ مراتع لهواه و مربع صباه و خفقات قلبه فبكى و فخر و هجا. (26) و يبدو أن هذه القصة - قصة سقوط مضر عن جملته و ما تلاها. لاقت رواجاً في أوساط الباحثين العرب المعاصرين ، فهذا الدكتور العتوم يسوقها هو الآخر ، ثم يعقب عليها بقوله : "فبعد أن أدرك الناس إرتياح الإبل لهذا الصوت : هايدا ... هايدا ... الذي نقلوه عن تأوه مضر : وايداه ... وايداه توصلوا إلى نوع من الغناء سموه النصب و عليه يقوم الحداء الذي كانوا يترنمون به في أشعارهم . (27) إنطلاقاً من هذا النص تطل علينا فكرة الغناء ، لتفقد إني إجتهدات جماعة من الباحثين نصوا على دور الغناء في تطور الرجز .

### دور الغناء في بدايات الشعر العربي

يعد المستشرق بروكلمان رائد الفكرة كذلك ، حيث إنطلق من اجتهدات عالم الاجتماع "بوخر" ، الذي أشرنا إليه من قبل في كتابة "العمل و النغم" حيث يقرر في هذا الصدد قائلاً : "و قد رويت لنا عن العرب أيضاً مثل هذه الأغاني التي تصحب العمل ". (28) غير أنه يحصر ذلك في بدو شبه جزيرة سيناء ، الذين كانوا "يغنون (في المائة الرابعة و هم يستاقون من البئر". (29) ثم يرجع فكرة السجع التي إلتف حولها كثير من الباحثين - كما مر بنا - لأنها توافق ترانيم الكهان ، أو الترانيم الدينية التي يرى أنها أصل الشعر. إن فكرة الغناء التي ظلت في إجتهدات من ذكروا المتع و الحداء ضمنياً مثلما هي عند الدكتور لعبيدي الذي جعل الإنشاد يصاحب أعمال الحفر أولاً ، ثم السقاية ثانياً فكان ينشد مع حفره لتلك البئر و ينشد عند استقائه منها رجزاً بسيطاً قصيراً ". (30) ثم يقول في موضع آخر : "و هكذا كانوا يترنمون عند قيامهم بالصيد بما يلائم المشاعر التي تغمرهم حينما يرون السهم قد نفذ في جوف الرمية" . (31) أصبحت هذه الفكرة عند الدكتور محمود الحسيني المرسي جلية واضحة ، من ثم فهو يصرح قائلاً في شأنها : "وجد العربي نفسه يغني ، و وجد نفسه يلقي بأصوات مسجوعة من شأنها الترفيه ، وحث البطيء و الحث على الحروب ، تلك الأصوات المسجوعة لم تكن شعراً ، لكنها كانت بداية الشعر ، و لم يكن كل عربي قادراً على إلقاء هذه الأصوات إلا أفراد بعينهم سموها شعراء" . (32)

و لعل الدكتور شوقي ضيف كان أكثر الباحثين تقديرا الدور الغناء في هذا المجال ، حيث جعله أساس تعلم الشعر كما يصرح بذلك حيث يقول : " فالغناء كان أساس تعلم الشعر عندهم و لعلهم من أجل ذلك عبروا عن إلقائه بالإنشاد " . (33) ثم يعود بالغناء من هذا الضرب إلى خطواته الأولى حيث يقول : " و كانوا في أثناء تقديم ذبائحهم و صب دمانها على الأنصاب المقدسة عندهم يتغنون غناء لعله هو أصل غناء النصب ، الذي شاع بينهم في الجاهلية " . (34)

و إذا كان بعض الباحثين نص على الرجز - سجعاً كان أم غناء - فإن بعضهم لم يفعل ، مثل الدكتور يوسف خليف الذي اكتفى بذكر أصل الشعر المباشر أي الرجز و ذلك حيث يقول : " و من الممكن أن تتصور أن الشعر بدأ رجزاً ثم تولدت من الرجز أوزان أخرى هي - في أغلب الظن أوزان البحور ذوات التفعيلة الواحدة ، و على هذه الأوزان أجرى الشعراء تجاربهم الأولى التي انتهت بظهور فكرة " البيت " و ظهور " المقطوعة " و أوزان أخرى جديدة ، ثم ظهرت بعد ذلك - نتيجة لسنة التطور الطبيعية - القصيدة الطويلة عند المهلهل و من عاصروه من شعراء حرب البسوس " . (35)

و أيا كانت مقاصد هؤلاء و أولئك ، فإن قضية الأصول الأولى للشعر العربي أخذت حظاً وافراً من جهود الباحثين ، و إن مازال ذلك غير كاف لإلقاء الضوء الذي سيكشف عن حقيقتها كاملة ، و من ثم فإنها لا تزال تنتظر المزيد من هذه الجهود حتى تصل إلى تعرف أمرها و كشف أسرارها . و نستطيع بعد هذه الجولة - جهود الدراسات أن نحدد ملامح النتائج التي توصف إليها ، و نقاط الاختلاف أو الاتفاق التي ارتسمت في مسارات دراساتهم . فالسبل لا بد أنها تفرقت بهم غير أن النتائج تكاد تتفق في مجموعها مع تسجيل بعض الاختلافات إما في المعالجة أو بعض الجزئيات . فمن الضرب الأول نذكر إختلافهم في تناول مسألة دور الغناء ، حيث نص عليها بعضهم صراحة (الدكتور محمود الحسيني المرسي) و أشار إليها ضمناً بعضهم الآخر . (الدكتور جمال لعبيدي ) لكن الفريقين متفقان على دور الغناء في ظهور الرجز و تطوره ، بل إن منهم من يجعله أساس تعلم الشعر (الدكتور شوقي ضيف ) .

و من الضرب الثاني إختلافهم في أصل الرجز حيث رأى بعض الدراسين - بخاصة المستشرقين - أن السجع الذي كان يحقق غرضا دينيا هو الصورة الأصلية للشعر العربي . بينما رأى فريق ثان أن حركات العمل الإيقاعية (متح ، حداء ، صيد ...) هي التي أفرزت هذه الترانيم التي كانت صورة أولية للرجز كان العرب الأوائل يترنمون بها ، و هي قديمة تعود إلى زمن أحد أحفاد سيدنا إسماعيل - عليه السلام - (مضر بن نزار) . أما الدكتور يوسف خليف فقد اكتفى بذكر الرجز كأصل للشعر دون أن يخوض في جذوره التي نبت منها . و قد لخص الدكتور علي العتوم النتائج التي انتهت إليها جهود الباحثين في هذه القضية - على إختلاف مناهجهم و نتائجهم - حيث قال : "و أكثر هؤلاء مثل من سبقهم على أن الرجز هو البحر الذي تولدت عنه البحور الأخرى و أن الرجز المتطور من الحداء الذي يحاكي وقع أخفاف الإبل هو الذي يمثل أولية هذا الشعر هذا فريق ، و فريق آخر رفض هذه النظرية و قال كما قال بعض المستشرقين و لا سيما بروكلمان إن الترانيم الدينية كانت وراء نشأة هذا الشعر." (36)

و حسبنا ما توصل إليه الفريقان في إنتظار جهود تعني خاصة بالعامل اللغوي ، و ما توفره إكتشافات النقوش بشبه جزيرة العرب في هذا المجال ، علها تكشف عما حجب عن الدراسة الأدبية في هذا المجال .

## مثبت الهوامش

- 1 - الجاحظ ، عمرو بن بحر - الحيوان - 74 / 1 ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط . مصطفى الباب الحلبلي ، مصر . 1965 - 1969 .
- 2 - ثعلب ، أبو العباس أحمد بن يحيى - مجالس ثعلب 411 / 2 ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط . دار المعارف ، مصر . 1908 .
- 3 - ابن سلام الجهمي ، محمد - طبقات فحول الشعراء - 33 / 1 ، تحقيق محمود محمد شاكر ، ط . مطبعة المدني ، مصر د ت .

4. انظر : السيرة النبوية لابن هشام - تحقيق مصطفى السقا و زميلاه - ط مصطفى الباب الحلي ( 2 ) 1955 و كتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني - تحقيق أمين الخانجي - ط مطبعة السعادة ، مصر 1905 و جمهرة أشعار العرب في الجاهلية و الإسلام لأبي زيد القرشي - تحقيق علي محمد البجاوي - ط . دار نهضة مصر د ت .
- 5 - دكتور سيد حسنين حنفي - الشعر الجاهلي - ص 7 ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر 1971
- 6 - دكتور شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي - ص 183 ، ط دار المعارف (6) مصر د ت .
- 7 - دكتور علي العتوم - قضايا الشعر الجاهلي - ص 18 ، ط . مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان ، الأردن 1984 .
- 8 - ابن رشيقي القيرواني ، الحسن - العمدة 20/1 ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط . دار الجيل بيروت 1972 .
- 9 - الدكتور محمد نجيب : البهيتي - تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري - ص 5 ط . دار الثقافة ، المغرب 1982 .
- 10 - الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر - البيان و التبیین - 84/4 عبد السلام هارون ، ط . الخانجي ، مصر 1975 .
- 11 - المصدر السابق 224/1 .
- 12 - الدكتور محمد الصغير بناني - النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبیین ص 175 ، ط . ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1983 .
- 13 - لدكتور جمال النجم لعبيدي - الرجز ، نشأته ، أشهر شعرائه - ص 52 ، ط مطبعة الأديب ، بغداد 1971 .
- 14 - الدكتور شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي - ص 194 .
- 15 - الدكتور جمال نجم لعبيدي - الرجز ، نشأته ، أشهر شعرائه - ص 76 .
- 16 - المرجع السابق ، ص 76 - 82 .
- 17 - كارل بروكلمان - تاريخ الأدب العربي - 1/ 44-5 ، ترجمة عبد الحليم النجار ، ط . دار المعارف مصر د ت .

- 18 - المرجع السابق ص 51.
- 19 - الدكتور محمد عوني عبد الرؤوف - بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف - ص 57 ط الخانجي مصر 1976.
- 20 - فيليب حتي - تاريخ العرب ، مطول 49/1 ط ( 4 ) دار الكشاف بيروت 1965.
- 21 - الدكتور محمد نجيب البيهيتي - تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري - ص 25 .
- 22 - الدكتور رمضان عبد التواب - فصول في فقه اللغة - ص 77 - 78 ، ط . الخانجي مصر د ت .
- 23 - الدكتور الطاهر مكي - امرؤ القيس ، حياته وشعره - ص 25 ، ط ( 4 ) دار المعارف مصر 1979.
- 24 - الدكتور محمود الحسيني المرسى - مفهوم الشعر في النقد العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري - ص ، 27 دار المعارف مصر 1983.
- 25 - المرجع السابق ص 27.
- 26 - المرجع نفسه ص 27 و ارجع إلى الدكتور بدوي طبانة قضايا النقد الأدبي - ص 37 ، ط مطبعة البحوث والدراسات العربية ، القاهرة 1971.
- 27 - الدكتور علي العتوم - قضايا الشعر الجاهلي - ص 41.
- 28 - كارل بروكلمان - تاريخ الأدب العربي - ص 44 ترجمة عبد الحلیم النجار
- 29 - المرجع السابق ، هامش رقم : 1 ص 45 .
- 30 - الدكتور جمال نجم لعبيدي - الرجز ، نشأته ، أشهر شعرائه - ص 68
- 31 - المرجع السابق ص 71 .
- 32 - الدكتور محمود الحسيني المرسى - مفهوم الشعر في النقد العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري - ص 25 .
- 33 - الدكتور شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي - ص 191.
- 34 - المرجع السابق 193 .
- 35 - الدكتور الطاهر مكي - امرؤ القيس ، حياته وشعره - ص 24 - 25 .
- 36 - الدكتور علي العتوم - قضايا الشعر الجاهلي - ص 52 .